البحوث والدراسات

أثر وجود المسجد في تكوين المدن وتأصيل نموها الدائري

أ.د. وليد عبدالله المنيس*

ملخص:

الهدف من الدراسة هو تحليل ودراسة أثر المسجد في تكوين بنية المدينة الإسلامية وتشكيلها الدائري حوله.

كانت المدن الإسلامية تنشأ حول المسجد الجامع طوال التاريخ الإسلامي، بداية من مكة المكرمة والمدينة المنورة، وانتهاء بمدن العالم الإسلامي.

إن النمو المركزي الحلقي أو الدائري كان يشاهد واضحاً في المدن الإسلامية، وقد قامت المدن نتيجة لأثر ركن الطواف حول الكعبة، واتجاه القبلة في الصلوات الخمس، بالإضافة إلى صلاة الجمعة؛ إذ كانت كلها تتحلق حول المسجد.

وكان العلماء المسلمون هم السابقين قد أمعنوا النظر في تصور ومناقشة النمور الدائري والخطة الدائرية حول المسجد، بل أسسوا المدن، ونظام استخدام الأرض بناء على العلاقة مع هذا الشكل.

ولعل من أوائل الجهود العلمية في موضوع الخطة الدائرية للمدن كان يشاهد عياناً في مدينة السلام، التي أسسها الخليفة أبو جعفر المنصور على نهر الفرات في العصر العباسي. وتبعه في ذلك العبقري ابن أبي الربيع، وغيرهما ممن ناقش هذا الموضوع أيضاً في العصر نفسه.

أثر وجود المسجد في التكوين الدائري للمدن:

للمسجد دور جوهري في تكوين المدن الإسلامية وتحديد شكل نموها، بل هو – في الحقيقة – البؤرة التي ترتكز عليها هذه المدن وتنمو حولها. والمتتبع للمدن العربية والإسلامية يجد أن ذلك متحقق لا تخطئه عين الناظر، بدءاً من مكة

* أستاذ بقسم الجغرافيا، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، دولة الكويت.

المكرمة والمدينة المنورة ومروراً بمدن الخلافة الإسلامية وانتهاء بمدن دول العالم العربي والإسلامي الواسع الأرجاء، بل إنه حتى في المدن الحديثة نجد المسجد جزءاً أساسياً وجوهرياً من التركيب الحضري والوظيفي للمدن، وإذا ما استحدث بناء مسجد في مدينة ما فإنه سرعان ما يتحول النمو حوله.

وإذا تقصينا دور المسجد – سواء من جهة تكوينه كوحدة عمرانية متفردة في الشكل، أو من جهة الوظيفة والمضمون – فسيوصلنا ذلك إلى معرفة الأسباب التي جعلت المسجد واسطة عقد المدن والحواضر الإسلامية، والمؤثر الأقوى في نموها.

وللمسجد مؤثرات حضرية استقطابية؛ إذ أنه يجذب النمو باتجاهه، وهو نمو يتخذ الشكل الدائري أو شبه الدائري.

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

١ – تحليل أثر المسجد ودوره في تكوين المدينة الإسلامية.

٢ – أثر المسجد في تشكيل نموها الدائري.

٣ – إثبات أن الخطة الدائرية من صناعة الحضارة العمرانية والعمران الإسلامي.

إشكالية الدراسة:

تتمحور قضية الدراسة حول جملة من الحقائق التي تتفرع عنها فروض:

١ – تأصل النمو الدائري مبكراً وسابقاً وواضحاً جلياً حول الكعبة المشرفة؛ أول بيت يطوف الناس حوله قبل الحضارات الأخرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ (آل عمران:٩٦). إن الطواف حول الكعبة أصل من أصول العبادة وهو ركن الحج والعمرة، وهي – أي الكعبة – قبلة المسلمين، وقد تأصل حولها الشكل الدائري للنمو.

٢ – إن المدن الإسلامية قامت حول المسجد الذي هو لبها وجوهرها، وأوضح مثال على ذلك المدينة المنورة التي شكلت حول المسجد النبوي، ونمت

حوله، وهي التي سارت على منوال خطتها المدن والحواضر الأخرى في العالم الإسلامي.

٣ – إن المسجد من أبرز أسباب النمو الدائري الحلقي للمدن من حوله، وهو سبيلها إلى التوجه نحو القبلة.

٤ – إن الحضارة الإسلامية – بناء على ذلك – هي التي ابتكرت الشكل الدائري الحلقي وليس النظريات الغربية التي جاءت متأخرة عنها.

الإطار الزمني والمكاني للدراسة:

أما الإطار الزمني والمكاني للدراسة فهو أشكال العمران الإسلامي عبر الأزمنة منذ العهد النبوي الشريف، مع التركيز على خطط المدن ودور المسجد في تكوينها ونموها وأبرز الخطط العمرانية.

منهج الدراسة:

تتعامل مناهج البحث في الدراسات الحضرية وجغرافية العمران، أو الحضر على وجه الخصوص، مع ثلاثة مناهج تحمل في مضمونها أيضاً المنهجين الاستقرائي والاستدلالي، وهي:

١ – المنهج الوصفي.

٢ – المنهج التحليلي.

٣ – المنهج السلوكي.

فالأول: يصف الظاهرة والمشاهدات، وهو أشبه بأدب الرحلات، والثاني: يحلل الظواهر ويستقرئها، والثالث: ينزل إلى سكان الحواضر ويدرس سلوكهم الحضري.

ويتصل بذلك مناهج علمية، مثل منهج تخطيط المدن، ومنهج دراسة العلاقات الإقليمية بينها، وتتبنى هذه الدراسة المنهج: التحليلي، ومنهج: تخطيط المدن لاتصالهما بفروض الدراسة.

أدبيات الدراسة :

الدراسات التي تناولت المدن الإسلامية لا حصر لها بطبيعة الحال، غير أن بعضها ألصق بالدراسة.

ولعل من أبرز الدراسات ما قدمه الأوائل، مثل "سلوك المالك في تدبير الممالك" للعلامة ابن أبي الربيع (ت٢٥٠هـ)، الذي ربط بين خطط المدن والسلوك الحضري، وهو مالم تعرفه المدرسة الغربية إلا عام ١٩٢٠، بل وضع شروطاً دقيقة لإنشاء المدن. ومن ذلك أيضاً "أدب الدنيا والدين" للماوردي (ت٤٥٠هـ)، الذي تناول الأسباب الداعية لإنشاء الأمصار والحواضر وشروط المصر، ومن ذلك ما تناوله العلامة ابن خلدون من شروط إنشاء المدن في "مقدمته"، تحقيق علي عبدالواحد وافي (٢٠٠٨م)؛ إذ ذكر أوسع أنواع الشروط ووصل إلى الضبط البيئي للمدن، الذي لم يعرفه العالم إلا مؤخراً في منتصف السبعينيات حين ابتدأت مؤتمرات البيئة الحضرية.

ومن الدراسات المهمة "التراتيب الإدارية" للكتاني (٢٠١١م)، التي تناول فيها التمدن والعمران بجميع صوره في العهد النبوي الشريف؛ فلم يترك شاردة ولا واردة إلا أتى بها، ومنها خطة المسجد النبوي الشريف. وبطبيعة الحال فإن كتب الحسبة على العمران تعاملت مع تفاصيل المدن والحواضر كالحسبة على المساجد والحسبة على المساكن والحسبة على الطرق والساحات والرحب، ولعل من أبرزها "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" للشيزري.

ومن الدراسات المعاصرة "العمران والبنيان في منظور الإسلام" ليحيى وزيري (٢٠٠٨م)؛ حيث ناقش أسس العمران وضوابطه وأنواعه ومميزاته وتأثيره على نمط الشكل العام وضابط بناء المساجد، معززاً بالرسومات والأشكال النافعة. ومن ذلك "التطور العمراني لمدن الحج"، تأليف ناصر الحارثي (٢٠١٠م)، وكذلك "عمارة الأرض في الإسلام: مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية"، لجميل عبدالقادر أكبر (١٩٩٨م)، وناقش فيه الضوابط الشرعية للعمران مقارنة بالوضعية.

ومن المراجع الأجنبية l sheshtawy E "مدن الشرق الأوسط المتطورة" للششتاوي (٢٠٠٨)، وعالج الباحث فيه عدة دراسات تقارن الأصالة والتغير بين مدن الحضارة الإسلامية التقليدية كمصر والشام والعراق في مقابل مدن الخليج. أما رافيتز Ravetz (2000) في "إقليم المدينة ٢٠٢٠" فإنه يدرس فيه شكل الإقليم حول المدن في الزمن المعاصر مع تغير المؤثرات وكيف نتج منها أشكال عديدة حول المركز، تفسر تعقد الظاهرة الحضرية وتنوع نتائجها، وكذلك باشيوني Pacione (2008) الذي ناقش الجانب الديني وأكد أهميته في تأسيس الحواضر وتطورها.

فصول الدراسة:

أما فصول الدراسة فهي:

١ – المسجد وأثره في تكوين بنية المدن.

٢ – شروط إنشاء المدن ودورها في تأصيل النمو الدائري.

٣ – المدينة الدائرية من صناعة الحضارة الإسلامية.

مقدمة:

للمسجد دور جوهري في تكوين المدن الإسلامية وتحديد شكل نموها، بل هو – في الحقيقة – البؤرة التي ترتكز عليها هذه المدن وتنمو حولها. والمتتبع للمدن العربية والإسلامية يجد أن ذلك متحقق لا تخطئه عين الناظر بدءاً من مكة المكرمة والمدينة المنورة، مروراً بمدن الخلافة الإسلامية وانتهاء بمدن دول العالم العربي والإسلامي الواسع الأرجاء، بل إنه حتى في المدن الحديثة نجد المسجد جزءاً أساسياً وجوهرياً من التركيب الحضري والوظيفي فيها.

والمساجد أحب المواضع إلى الله – تعالى – لقوله – صلى الله عليه وسلم –: "أحب البقاع إلى الله المساجد وأبغضها إليه الأسواق". (المستخرج على الصحيح، رقم ١٥٠٠)–، ولقوله – صلى الله عليه وسلم –: "من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة" (ابن ماجة رقم ٧٨٣).

وإذا تقصينا دور المسجد – سواء من جهة تكوينه كوحدة عمرانية متفردة

في الشكل، أو من جهة الوظيفة والمضمون فسيوصلنا ذلك إلى معرفة الأسباب التي جعلت المسجد واسطة عقد المدن والحواضر الإسلامية، والمؤثر الأقوى في نموها.

أولاً- المسجد وأثره في تكوين بنية المدن:

جاء في "**التراتيب**" للكتاني[1] (٢٠١١م)، أن **المسجد** أول البناءات، بنى – صلى الله عليه وسلم – مسجد قباء أول ما ورد المدينة ووقف على أساسه، كما أسس مسجد المدينة عندما وفد على بني النجار.

وكما في الصحيح، قال – صلى الله عليه وسلم – لبني النجار عن مسجد المدينة "ثامنوني بحائطكم هذا، قالوا لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فصف النخلة قبلة المسجد وجعلوا عضادته حجارة وحملوا الصخر وهم يرتجزون..."، وذكر ابن جماعة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أمر ببناء المسجد فبني باللبن وجعلت عضاداته بالحجارة وسواريه جذوع النخل، وسقفه الجريد وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وفي الجانبين مثل ذلك..."[2].

وهذا يدل على **أن أول وظيفة أحياها النبي – صلى الله عليه وسلم – في المكان هي المسجد،** الذي هو للعبادة، وذكر الله والاجتماع والترابط وطلب العلم وغيره، وهذه من أبرز المؤثرات التي تجعل من المسجد مرفقاً يقصده الناس مراراً في اليوم والليلة، ومن ثم يتأصل **الأثر الاستقطابي** له. وكان المسجد بسيطاً حينذاك، قال عنه النبي – صلى الله عليه وسلم –: "اجعلوه عريشاً كعريش موسى"، كناية عن التبسط والبعد عن التكلف والزخارف؛ لأن القصد العبادة والاجتماع.

وكان المسجد في بدايته من غير قبة ولا منارة ولا منبر أو محراب، وكان

(١) الكتاني، محمد عبدالحي بن عبدالكبير. "كتاب التراتيب الإدارية". ط غ م. ٢/٧٦.
(٢) المصدر السابق. ٢/٧٧.

بلال – رضي الله عنه – يؤذن من فوق أعلى بيت في المدينة لامرأة من بني النجار[٣].

ومما يذكر أن أول مسجد ظهرت فيه القبة هو مسجد الصخرة في القدس سنة ٧٢هـ، في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان – رحمه الله – ثم انتشرت القباب وتضخمت، وبخاصة عند العثمانيين. أما المنبر، فقد اتخذه النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما بعد[٤]، وقد صنعته له إحدى نساء المسلمين، بعد أن أمرت ابنها النجار ليصنعه ليراه الناس إذا قام خطيباً، وكان له ثلاث درجات، ثم فيما بعد ظهر المحراب للأئمة. وللمسجد آثار كبيرة ورئيسة على ما حوله من عمران، لا يمكن حصرها.

فإذا ما ظهر المسجد في المكان بدأت آثاره المكانية في تكوين المدينة والتأثير على بنيتها وشكل نموها على ما سيأتي (**انظر الشكل ١**).

الشكل (١)

(٣) انظر: ضويان، إبراهيم. منار السبيل في شرح الدليل. ١/١٧٨. ط ٢٠١٢م. التوفيقية. مصر.

(٤) البخاري رقم ٩٠٢. ومسلم رقم ٥٤٤.

أبرز مؤثرات المسجد على ما حوله:

١ – أثره في تشكيل النمط العمراني من حوله وتفرده بالشكل:

إن **الشكل** الذي يتفرد به المسجد من الخارج يجعل له خصوصية معمارية لا تشاهد في غيره من المباني، في الوقت الذي **يفرض على ما حوله من عمران بأن يتخذ شكلاً مغايراً لشكل المسجد**. فهو معلم معماري لأداء صلاة الجماعة والجمع والأعياد أحياناً، وغير ذلك من الاجتماع المشروع كحلقات العلم فيه. فأول معالمه **تفرده بالشكل** المعماري الخاص و**كبر حجمه** مقارنة بما حوله لاستيعاب المصلين، و**الارتفاع** عما حوله. **قال تعالى**: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ النور: ٣٦. يظهر ذلك جلياً في **المنارة** أو **المئذنة** و**القبة**. كما تتفرد **الميضأة** بشكل خاص، وهي مما أضيف إلى المسجد؛ نظراً للحاجة إلى الوضوء، لهذا فشكل المسجد مما لا تخطئه عين الناظر، فهو أعلى وأكبر مما حوله حتى يراه الناس ولا يجدون مشقة في تعرفه والتوجه إليه؛ مما يجعله **مركزاً لما حوله**؛ لأنهم يأتونه من كل جهة.

كما يظهر في المسجد من **الداخل** وحدات معمارية لا تشاهد في غيره، وهي **المنبر** وقد اتخذه النبي – صلى عليه وسلم – ليراه الناس في خطبته، و**المحراب** و**الصحن** ويكون مكشوفاً أو مغطى تحيط به **الأروقة والأعمدة**، كل ذلك يجعل من المسجد علامة عمرانية فارقة تجعله – بالضرورة – مختلفاً عن غيره من العمران الذي سيتشكل بأثره وينسجم معه ويأنس به.

٢ – أثره على المخطط العمراني:

يؤثر المسجد على مخطط المدينة بحكم شكله العام الذي يتوسط ما حوله، فتجد اتجاهات **الشوارع** و**السكك** تتوازى أو تتقاطع معه أو تتجه إليه مباشرة، كما أن **المساكن** والمرافق تتخذ أشكالاً تنسجم مع المسجد، فتجد أن حوائط الغرف أو البيوت عموماً تتوازى معه في التوجه إلى **القبلة**. كما أن **أبواب** البيوت وأحواشها أو أفنيتها تنحرف قليلاً عن بوابات المسجد؛ لأنه لا يكاد يخلو من داخل أو خارج طوال ساعات اليوم والليلة، كما أن طول منارة المسجد تحدد مدى صوت المؤذن الذي غالباً ما يكون مسموعاً من جيران المسجد، ثم إن

منارة المسجد من واقع الحفاظ على الخصوصية لا تكشف بيوت الناس، بل إن المؤذن ينبغي له أن لا يزيل قدميه عند الأذان إذا أذن في المنارة؛ أي يرفع وجهه إلى السماء، ولا ينظر إلى أسفل لئلا يكشف بيوت الناس، كما كان يفعل قديماً قبل ظهور مكبرات الصوت، بل إن المسجد يكون سبباً في تشكيل المخطط العمراني في حالة تعدد النواة الحضرية؛ بمعنى أدق أنه لو احتاجت الحاضرة إلى بناء أكثر من مسجد فإنه يتشكل حوله أنماط حضرية متكررة في السياق الحضري نفسه، بغض النظر عن شكل الحاضرة أهو سداسي أم دائري، وسرعان ما يتحلق حول المسجد تدريجياً حتى تكتمل الدائرة حوله سواء المسجد الجامع أو مسجد الحي، كما يظهر في الشكل (٢).

الشكل (٢)

٣ – أثره في تحديد حجم سكان المحلة:

يؤثر المسجد على **تحديد حجم سكان المحلة** باعتبار أن كل مسجد له مساحة تتناسب مع من يرتاده؛ ففي الحديث أن "جار المسجد ٤٠ من كل جهة"[٥]؛ مما يعطي ١٦٠ جاراً، ولو ضربنا ذلك بحجم الأسرة وهو ٥ إلى ١٠ أفراد لكان مجموع سكان المحلة حول المسجد بين ٨٠٠ إلى ١٦٠٠نسمة. وهذا الحجم **تقوم به الجماعة والجمعة والأعياد**، فالجمعة يشترط لها ٤٠ مصلياً – مثلاً – لكي تنعقد عند الإمام أحمد بن حنبل. وبالمثل فإن **حجم المسجد يعكس حجم سكان المحلة**، فيقدر أن مسجداً بحجم ٣٠٠م٢ يستوعب ٣٠٠ مصل، باعتبار أن مقدار ما يشغله المصلي من أرض المسجد متر مربع أو نحوه وهكذا، وقد يحتاج إلى قيام مسجد آخر غير جامع باعتبار أن حجم المسجد يستدعي قيام محلة سكنية أخرى، كما أن مسجد المحلة أو الحي أصغر من المسجد الجامع الذي تقام فيه الجمعة، وهكذا (انظر الشكل ٣).

الشكل (٣) – تصور لحجم الأحياء السكانية حول المسجد باعتبار أن جيران المسجد أربعون من كل جهة (٥x١٦٠=٨٠٠ نسمة)، وفي حالة حجم الأسرة الأكبر (٨x١٦٠=١٢٨٠ نسمة)، يعطينا حجماً سكانياً يشكل المجتمع حول المسجد

٤ – أثره على قيام السوق:

للمسجد أثر كبير على قيام الأسواق حوله، وهذا ظاهر جلي في آيات بينات، قال - تعالى –: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ الجمعة: ١٠، فيؤمر الناس بالسعي لابتغاء فضل الله من الرزق والتكسب بعد الخروج من أداء صلاة الجمعة، ولم يمنع الشرع البيع إلا حين النداء الثاني للخطبة، وعند ذلك يحرم البيع والشراء؛ لقوله – تعالى –: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ الجمعة: ٩، وكذلك قوله – تعالى –: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ الجمعة: ١١، وفي هذا معنى أن **السوق قريب من المسجد**؛ لأنهم لما سمعوا بقدوم القافلة خرجوا وتركوا النبي – صلى الله عليه وسلم – على المنبر يخطب، وذلك قبل اكتمال أحكام الجمعة نظراً لتدرج التشريع حينذاك.

٥ – أثره على قيام المساكن:

بناء المسجد سبب في قيام المساكن بقربه، وهذا ما فعله النبي – صلى الله عليه وسلم – فبعد أن بنى المسجد شرع – صلى الله عليه وسلم – في بناء المسكن؛ **لأن الصلوات في المسجد يطالب بها من سكن واستقر** ولا يطالب بها المسافر أو غير المستقر، جاء في "التراتيب" للكتاني[٦](٢٠١١):

"ثم بنى – صلى الله عليه وسلم – مساكنه إلى جنب المسجد باللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد، وكان محيطها مبنياً باللبن وقواطعها الداخلة من الحديد والمسوح.."[٥].

(٥) الطبراني في الكبير. رقم ١٤٣. والبيهقي في السنن الكبرى. رقم ١٢٦١٢.

٦ – أثره في تأصيل المركزية الحضرية الإدارية:

يسهم المسجد في تأسيس المركزية الإدارية التي هي من أبرز علامات الترابط في المدن الإسلامية، والدوران حولها، وذلك مصداقاً لقول ابن خلدون عنها: **لأنها بجملتها دار واحدة**[٧]؛ **وذلك بارتباطها بمؤسستين إداريتين رئيستين في قلب المدينة الإسلامية، ثالثهما المسجد الكبير أو مسجد الدولة أو المصر، هما:**

أ – مقر ولي الأمر.

ب – دار القضاء.

ذلك أن ولاة الأمر سابقاً كانوا يتولون إدارة البلاد ويقضون بين الناس مع توليهم **الإمامة في المسجد الجامع** الكبير، فكانوا بين هذه المؤسسات الثلاث الرئيسة التي هي القلب المحرك للمدن والحواضر الإسلامية. ولهذا تجد أن المدن الإسلامية تتوسطها هذه المؤسسات، ويبرز المسجد بينها؛ لأنه يمكن أن تقام فيه الإدارة وكذلك القضاء بين الناس أو حل مشكلاتهم، **وهذا يفسر لماذا يؤثر هذا العامل في جعل النمو مركزياً حلقياً يتسع بالتباعد.**

٧ – أثره في ضبط السلوك الحضري والأخلاق في المدن:

المتأمل في ضوابط دخول المسجد أو البقاء فيه مما أسسته الشريعة يتوصل إلى نتيجة، مفادها أن المسجد أحد مصادر الضبط السلوكي والأخلاقي المترتب على العبادة، إضافة إلى عنصر تحقيق الاجتماع الذي لا يفارقه. ذكر السنامي[٨] (١٩٨٦) في "**نصاب الاحتساب**" جملة من هذه الضوابط، هي:

أ – ألا يشتري فيه ولايبيع.

ب – ألا يسل فيه سيفاً.

ج – ألا ينشد فيه الضالة.

---

(٦) الكتاني. "التراتيب الإدارية". مصدر سابق. ٢/٧٨.

(٧) ابن خلدون. "المقدمة". تحقيق: الدكتور علي عبدالواحد وافي. ص٨٣٩، ٨٤٠. طبعة دار الشعب: مصر. السنة غ م.

د – ألا يرفع فيه الصوت.
هـ – ألا يتكلم فيه بأحاديث الدنيا.
و – ألا يتخطى رقاب الناس فيه.
ز – ألا ينازع في المكان.
ح – ألا يضيق على أحد في الصف.
ط – ألا يمر بين يدي المصلي.
ي – ألا يبزق فيه.
ق – أن ينزهه عن النجاسات.

ثم إن الشيزري في "**نهاية الرتبة في طلب الحسبة**[٩] (١٩٦٢) ذكر أعمال المحتسب في المسجد بقوله:

"ويشرف المحتسب على الجوامع والمساجد ويأمر قومها بكنسها في كل يوم وتنظيفها من الأوساخ، ونفض حصرها من الغبار، ومسح حيطانها، وغسل قناديلها وإشعالها في كل ليلة، ويأمر بغلق أبوابها عقيب كل صلاة، وصيانتها من الصبيان والمجانين، وممن يأكل الطعام أو ينام، أو يعمل صناعة، أو يبيع سلعة، أو ينشد ضالة، أو يجلس فيها للناس لحديث الدنيا.."

فلك أن تتصور أثر هذه الضوابط على سلوك مرتادي المساجد وأثر ذلك على **الاستقرار النفسي والانضباط والخلق الرفيع في المجتمع** عموماً.، ومعلوم الآن أن أبرز الدراسات تركز على الجوانب النفس – حضرية في الحواضر، وهي في الحقيقة عملية استقراء للحواضر واستنطاقها بالغوص في الجوانب النفسية لساكنيها.

ثانياً – شروط إنشاء المدن ودورها في تأصيل النمو الدائري:

كان العلماء المسلمون من أوائل من ناقش شروط إنشاء المدن وربطها

(٨) انظر: السنامي، عمر بن محمد. "نصاب الاحتساب". تحقيق: مريزن عسيري. ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. مكتبة الطالب: مكة المكرمة. ص١٧٤.

بالمسجد، **ومن ثم تأصيل النمو الحلقي أو الدائري فيها**. لقد تحدثوا أولاً عن مفهوم **الاستقرار والاستيطان**، والمقصود بالمصر أو الحواضر الكبيرة. أما الشروط الواجب مراعاتها عند إنشاء المدن فكان من **أوائل** من ناقش ذلك العلامة ابن أبي الربيع (ت٢٥٠ هـ) في كتابه "سلوك المالك في تدبير الممالك"(١٠).

فقد وضع ثمانية شروط تدل على أسبقية وعبقرية مبكرة لإنشاء **المدن الدائرية** الشكل، مع تأكيد **الموقع الوسط للمسجد** فيها، وهذه الشروط هي:

أولاً: أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب.

ثانياً: أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.

ثالثاً: أن يبني فيها جامعاً للصلاة **في وسطها** ليقرب على جميع أهلها.

رابعاً: أن يقدر أسواقها بكفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب.

خامساً: أن يميز قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضداداً مختلفة متباينة.

سادساً: إن أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها ويجعل خواصه كنفاً له من سائر جهاته.

سابعاً: أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء؛ لأنها بجملتها دار واحدة.

ثامناً: أن ينقل إليها من أهل الصنائع بقدر الحاجة لسكانها.

يظهر لنا من هذه الشروط مدى الفهم المقرون بدقة الاختيار والتسلسل المنطقي للشروط بما يناسب إنشاء أي مدينة في هذا العالم الواسع الأرجاء في أيامنا هذه، على الرغم من أنه قد مضى على وضعها أكثر من ١١٠٠ عام!

فأول الشروط **سوق الماء**، وهو من أبرز أسس قيام الحضارة ودوامها، وفي ذلك تحرر من قيود الموضع الذي يفرض الانتقال قرب المياه؛ فبدلاً من ذلك يسوق

---

(٩) الشيزري. "نهاية الرتبة في طلب الحسبة". تحقيق: الباز العريني. ١٩٦٢م. دار الثقافة: بيروت. ص١١٠.

(١٠) انظر: ابن أبي الربيع، شهاب الدين أحمد بن محمد. "ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسي". "سلوك المالك في تدبير الممالك". تحقيق: ناجي التكريتي. ١٩٨٠م. دار الأندلس: بغداد. ص١٩٢.

إليه الماء. ومن المعروف أن المدن القائمة على النهر أو البحر مباشرة يكون النمو فيها شريطياً أو يكون نحو الداخل عكس موقع المسطح المائي؛ فالمدينة الدائرية – مثلاً – تصبح نصف دائرية النمو؛ لأن الماء يمنع استكمال الدائرة. وكذلك **شرط تقدير** الشوارع حتى تتناسب مع النمو الحضري، فلا يضطر المخطط إلى توسعة الشوارع كل فترة وجيزة؛ مما يترتب عليه اضطراب الحراك الحضري.

ثم يأتي بعد ذلك أهم ما يتقصاه فرض هذه الدراسة، وهو **مركزية موقع المسجد**، وهذا أمر مهم جداً لمرفق يرتاده الناس خمس مرات في اليوم والليلة والجمع وغير ذلك، هذه المركزية أشبه بقلب المسلم الذي هو جماع أحواله النفسية والأخلاقية والدينية، **وهو يؤكد النمو المركزي أو الدائري حول المسجد.**

أما باقي الشروط **كتقدير الأسواق** والصنائع وقبل ذلك الشرط السابق لعصره وهو **تمييز القبائل فلا يخلط أضداداً** متباينة؛ فهو مما لم يتوصل إليه عالمنا المعاصر إلا من عقود قليلة بعد أن اكتشفوا أن كثيراً من مشاريع الإسكان لم تراع تباين الناس والأعراق؛ مما تسبب في عدم الانسجام الاجتماعي الحضري ومن ثم فشل المشروع بعد هجرة السكان أو بعد تفاقم المشكلات بين المستوطنين.

كما ناقش ذلك أيضاً الإمام الماوردي (ت٤٥٠هـ) في "**تسهيل النظر**"[١١] (١٩٨١)، ووضع شروطاً سابقة لعصره أيضاً؛ حيث راعى الجانب البيئي الذي تنبه له العالم مؤخراً. يقول في شروطه لإنشاء المدن:

١ – سعة المياه المستعذبة.

٢ – إمكان الميرة المستمدة.

٣ – اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة.

٤ – قربه مما تدعو الحاجة إليه من المراعي والأحطاب.

٥ – تحصين منازله من الأعداء.

٦ – أن **يحيط** به سواد يعين أهله.

إن المتأمل لهذه الشروط سيعرف مقدار ما وصل إليه علماء الإسلام في فهم المدن وضوابطها. لقد راعى الماوردي أبرز عوامل الاستقرار، وهي **الماء** (المياه المستعذبة) **والغذاء** (الميرة المستمدة)و **الهواء والتربة**(اعتدال المكان الموافق

لصحة الهواء والتربة)، وهذه أسس البقاء في المكان، ومن دوافع الإبداع وحسن التفكر. يضاف إلى ذلك **المراعي والغابات** (المراعي والأحطاب + السواد) وعامل **التحصين** والأمن (تحصين منازله من الأعداء) فهذه أيضاً من عناصر الديمومة وهي ظهير للحضارة.. أما قوله أن **يحيط به** سواد..إلخ؛ فذلك يؤكد **النمو الدائري**.

أما شروط العلامة ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) فهي نقلة حضارية تتناسب مع مكانته العلمية؛ حيث توسع في شروطه وقسمها ثلاثة أقسام، كل قسم ينضوي تحته شروط خاصة به. يقول ابن خلدون[١٢] في "مقدمته": لابد من مراعاة ثلاثة ضوابط، هي:

الأول: دفع المضار.

الثاني: جلب المنافع.

الثالث: تسهيل المرافق.

أما **دفع المضار** فتشمل:

١ – أن **تحاط بسور** يدفع الأعداء عنها، يقول: "أن **يدار** على منازلها سياج **الأسوار**".

٢ – أن تكون في موضع منيع، يقول: "وأن يكون ذلك في متمنع من الأمكنة".

٣ – مراعاة البيئة، يقول: "طيب الهواء للسلامة من الأمراض ".

أما **جلب المنافع** فيشمل:

١ – توفير **مياه الشرب**، يقول:"أن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة".

٢ – القرب من **المراعي** الصالحة، يقول: "طيب المراعي لسائمتهم".

٣ – العناية **بالزراعة**، يقول:" ومما يراعى المزارع فإن الزروع هي الأقوات".

أما ضوابط **تسهيل المرافق** فتشمل:

الموقع قرب البحر لتسهيل الصادر والوارد، يقول: "وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل القاصية من البلاد النائية".

---

(١١) الماوردي. "تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك". تحقيق: محيي هلال السرحان. ١٩٨١م. دار النهضة العربية: بيروت. ص١٦١، ١٦٢.

المتأمل لهذه الشروط يقف على شموليتها؛ بحيث لم يفتها أي ضابط؛ مما هو من أساسيات العمران البشري. **ونلاحظ – فيما يخص دراستنا – أنه أكد النمو الدائري باشتراطه السور الدائري حولها.**

بناء على ذلك يمكن تصور عناصر المدينة الإسلامية **الأساسية** وعناصرها **المساعدة** المكملة أو الملحقة بها. أما العناصرالأساسية – بناء على ما وضعه العلماء وما يستنبط منه – فهي:

الأول: المسجد الجامع.

الثاني: مقر ولي الأمر ودار القضاء.

الثالث: السوق والصنائع.

الرابع: السكن والطرق.

الخامس: السور **الدائري** والبوابات.

السادس: الماء أو النهر.

أما **العناصر المكملة والمساعدة**، فهي:

السابع: البساتين والمراعي.

الثامن: التربة وطيب الهواء.

التاسع: الحماية كالجبال والهضاب والبحر.

العاشر: الساحات والمقابر (انظر الشكل٤).

الشكل (٤) – المسجد الجامع – مقر قصر الحاكم – الشرطة والقضاء – المساكن – السوق – السور – البوابات – النهر – الجبال – البساتين والأحطاب

ثالثاً – المدينة الدائرية من صناعة الحضارة الإسلامية:

مما لاشك فيه أن النمو الدائري من صناعة العمران الإسلامي، يدل على ذلك جملة من الحقائق التي لا تقبل التأويل أو التعطيل على الرغم مما دأبت عليه المدرسة

(١٢) ابن خلدون. "المقدمة". مصدر سابق. ص٨٣٩، ٨٤٠.

الغربية – للأسف – من تهميش لدور المدرسة الإسلامية العمرانية بقصد أو بغير قصد، فإذا تكلمت عن العمران الحضري فيما بين الحضارات لا تجد ذكراً لمساهمة المدرسة العربية والإسلامية عموماً بل جل ما تذكره – هذا إن فعلت – قصاصات مشوهة أو مقتطفات غير مرتبة على هوامش المسح الأدبي للظاهرة.

لم تعرف الحضارة الغربية الشكل الدائري الواضح الفعلي الحقيقي للمدن إلا بعد الحرب العالية الأولى في النماذج الكلاسيكية[١٣] التي تصدرها نموذج **النمو المركزي** Concentric zone للاجتماعي برجس Burgess عام ١٩٢٥. فلم نشاهده في المدن اليونانية التي استحسنت المخطط الشبكي الشطرنجي بأثر المذهب العقلاني الرياضي الذي توسطته ساحة الأجورا Agora أو ساحة الخطابة على قمة الأكروبوليس، ولا المدينة الرومانية ذات التلال السبعة التي توسطها الفورم Forum، فلم يسمح لهما السطح المتضرس بذلك أصلاً لكليهما؛ أعني أثينا وروما.

بنى برجس Burgess نموذجه على أساس: أن الجذب القادم من المركز هو العامل المؤثر المتسبب في النمو الحلقي حول هذا المركز الذي يقع فيه أعلى سعر للأرض، وأن الحلقات تتسع بالتباعد عن المركز، **والجديد عنده** أنه ربط بذلك توزيعاً طبقياً مكانياً بحكم تخصصه في علم الاجتماع، لكنه محض تجربة أمريكية محلية بناها على شيكاغو.

أما نموذج القطاعات Sector Theory لأولمان وهاريس Ullman & Harris الذي بناه على ٦٢ مدينة أمريكية عام ١٩٣٩، فقد وضع أسباباً أكثر قبولاً في تفسير التركيب القطاعي - الدائري بدلاً من الدائري. ولو قال قائل إن الألماني المزارع فون ثونن Thunin عام 1826 تعرض لهذه الفكرة في نموذج **المدينة المنعزلة** أظهر فيها أثر الموقع في تحديد نمط المحاصيل حول السوق، فالجواب: إن الشكل لم يكن دائرياً تام الاستدارة بل جنح إلى التمدد القطاعي أو على شكل ذراع سحب الدائرة نحو الأطراف بعد أن أدخل عليه عامل المواصلات، كما فعل برجس سابق الذكر الذي طور شكله الحلقي بعد أن تصور نهراً يقطعه فغير بنية أسعار الأراضي[١٤]. والحال نفسه يقال عن الماضي كما

الحال في **مدينة ماري** التي ظهرت ٢٩٠٠ ق.م على نهر الفرات، ولها شكل دائري ويحيط بها سور دائري إلا أنها قامت على أساس عاملين، هما: الدفاعي والتجاري الذي حتم عليها اتخاذ هذا الشكل وليس العامل الديني الذي هو اساس فكرة الدائرة حول المركز كما هو الحال في المدن الإسلامية.

ومن جهة أخرى فإن المتأمل للنماذج المعاصرة عند المدرسة الغربية يرى أنها استقراءات سببية لمؤثرات اقتصادية كسعر الأرض أو إيجارها والتنافس الحاصل بينها فيترتب عليه الشكل الدائري، وليس كحال المدن الإسلامية التي صنعت وابتكرت هذا النموذج ووضعته وضعاً لمناسبته للشروط المسبقة، ثم إن لك أن تتصور الفارق الزمني لتعرف أن الأسبقية كانت لنا!.

أسبقية النموذج الدائري في المدينة الإسلامية:

مما لاشك فيه أن الحضارة الإسلامية هي أول من جاء بالخطة الدائرية الكاملة الوظائف وضعاً لا استقراء أو سبباً، كما بينا سابقاً، لهذا فإن الشكل الدائري صناعة عمرانية من نتاج الحضارة الإسلامية قبل أن تعرفه المدن الغربية. ولو ناقشنا الأسباب التي تثبت ذلك لتبين لنا ذلك واضحاً جلياً قبل أن نعرض الخطة ذاتها.

الأسباب التي كونت الشكل الدائري:

والأسباب التي تؤكد ذلك سبعة، هي:

١ – الاتجاه نحو القبلة.

٢ – الطواف حول الكعبة.

٣ – الحكم والإدارة.

٤ – العامل الجغرافي.

٥ – الإبداع الفكري والمعماري، الإسلامي.

---

(١٣) انظر: إسماعيل، أحمد علي. "جغرافية المدن". دار الكتاب الحديث. القاهرة. ٢٠١٢م، ص٢٤١.

٦ – العامل السياسي والأمني.
٧ – العلاقات الإقليمية.

الشكل (٥)

أولاً – الاتجاه نحو القبلة:

إن الاتجاه نحو القبلة أو المسجد الحرام يومياً في الصلوات الخمس وأسبوعياً في الجمعة وسنوياً في الأعياد والحج من جميع الجهات حول العالم – يجعل الجميع يلتقي في نقطة واحدة مهما كان مصدرها، ويجعل التوجه دائرياً باتجاه نقطة واحدة. قال تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۖ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ البقرة: ١٤٤.

يشير عمر حسنة، طبقاً لنقل يحيى وزيري[١٥] (٧٥: ٢٠٠٨) بقوله:

"**ولعل من أبرز الأنماط المعمارية الإسلامية أنها تتمحور في بنائها وواجهاتها وهندستها ومرتفقاتها حول وجهة، أو بتعبير أدق نحو القبلة المسجد الحرام**".

إن هذا العامل القوي الأصيل يؤكد التوجه نحو القبلة من جميع الجهات بشكل دائري، كما بيناه آنفاً؛ مما يؤثر على تفهم الشكل الدائري وتقبله واستيعابه وتطبيقه في المدينة الإسلامية كما جاء عن ابن أبي الربيع في "سلوك المالك" (١٩٨٠)، بقوله[١٦]:

"**أن يبني فيها جامعاً للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها** ".

ثانياً – الطواف حول الكعبة المشرفة:

الطواف ركن من أركان الحج والعمرة، وهو أيضاً تحية الكعبة المشرفة لمن أراد أن يدخل المسجد الحرام. إن هذا الطواف يؤسس الشكل الدائري لنمو

(١٤) المصدر السابق. ص١٩٣.

المدينة الإسلامية واتساعها. والمتأمل للآيات الكريمة يجد تأكيد ذلك أو ما في معنى ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ الحج: ٢٩. وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ الحج: ٢٦، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ العنكبوت: ٦٧، وقوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الأنعام: ٩٢، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ البقرة: ١٢٥، وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ المائدة: ٩٧، وقوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ إبراهيم: ٣٧.

إن المتأمل لهذه الآيات وكذلك السنة النبوية في الحج والعمرة وفي سنن المسجد الحرام يجد واضحاً جلياً أن الطواف من أبرز المؤثرات في اعتياد الدوران حول المركز وفكرة النمو الدائري للمدن.

ثالثاً – الحكم والإدارة المركزية:

ونعني بذلك تمركز مؤسسات الحكم الثلاث الرئيسة في قلب المدينة، وهي:

١ – المسجد الجامع.

٢ – مقر ولي الأمر.

٣ – دار القضاء والشرطة.

وقد بينا ذلك سابقاً؛ لأنها أكدت النمو الحلقي حول هذه المؤسسات التي تدير شؤون البلاد. إن الارتباط المستمر بهذه المؤسسات يؤكد النزعة نحو المركز الذي يدور أساساً حول هذه المؤسسات وينمو في محيطها وحولها.

رابعاً – العامل الجغرافي:

ونعني به أثر الموضع وأحياناً الموقع على اتخاذ الشكل الدائري في النمو. فالمخطط الشبكي والدائري لايناسبهما إلا الشكل المنبسط السهلي الذي يسهل تشكل الحلقات بالبعد عن المركز. ولهذا تجد هذا العامل واضح الأثر في المدن

ذات السطح المنبسط، بخلاف ذات السطح المتضرس. وقد يقول قائل إن الكعبة أو البيت الحرام قام في مكان متضرس، فالجواب على ذلك إنه تشكل بواد غير ذي زرع منبسط كما جاء في الذكر الحكيم، ثم إنه توسع وكان توسعه منوطاً ببسط الأرض من حوله، وهذا يؤكد ترابط الشكل مع السطح.

خامساً – الإبداع الفكري والمعماري:

إن الخيال المعماري الإبداعي عند المسلمين – بحكم العقيدة والشريعة – يعطي مخططي المدن الإسلامية فكراً خصباً وقدرة على الإبداع والابتكار بما لا يماثله في الحضارات الأخرى كما هو مشاهد في جمال العمران في المدن الإسلامية، الذي يوائم بين متطلبات الدين وحاجات الإنسان. وقد مر بنا ذكر بعض شروط المفكرين، يضاف إليهم آخرون، منهم الحسن بن زولاق المصري أول من صنف كتاباً علمياً في خطط المدن (ت٣٨٧هـ)، وأبوعمر بن يوسف الكندي (ت٤٥٤هـ) والمقريزي (ت ٨٣٤) الذي صنف كتاب خطط مصر أو الخطط المقريزية، وابن الرامي في "أحكام البنيان"، وغني عن التعريف العلامة ابن خلدون الذي درس المدن دراسة شاملة (عبدالعال الشامي، ١٩٨٢).

إن هذا الأفق الواسع الخصب يعطي قدرات هائلة يسهل عليها وضع الخطط والأشكال بأنواعها، ومنها الدوائر كما سيأتي عياناً. وقد ناقش طرفاً من هذا الإبداع المعماري مصطفى عبدالرحيم محمد (١٩٧٩) الذي تناول الفن الإبداعي العمراني عند المسلمين من منظور ما يعرف بظاهرة التكرار في الفن المعماري، **وهي تكرر الأشكال كالأقواس على نسق متتابع أو الدوائر المتداخلة وأثرها في وظيفة المكان وجماله المعماري خاصة الشكل المثمن أو الدائري.**

---

(١٥) انظر: إبراهيم، عبدالباقي. (٢٠٠٠). "مشوار البحث عن أصول العمارة في الإسلام". مركز الدراسات التخطيطية والمعمارية.، القاهرة. عن يحيى وزيري. "العمران والبنيان في منظور الإسلام" ٢٠٠٨. الكويت. ص٨٩.

(١٦) ابن أبي الربيع، "سلوك المالك" مصدر سابق، ص١٩٢.

سادساً – العامل السياسي الأمني:

العامل الأمني المرتبط بالعامل السياسي – بطبيعة الحال – من العوامل المؤثرة في تكوين الشكل الدائري الذي يتحقق فيه أمران أساسيان، هما:

١ – اتخاذ الأسوار الدائرية للحماية من تسلل الأعداء من جميع الجهات.

٢ – إن هذا الشكل – بحد ذاته – يجمع أهل المدينة المسورة ككتلة واحدة قادرة على ردع العدو من جميع الجهات، كمدن القلاع المعروفة قديماً. ثم إنه يجعلهم كأسرة واحدة مترابطة كالجسد الواحد، تبدأ يومها وتنهيه كوحدة واحدة. وقد شاهدنا هذا الشرط فيما مر بنا من شروط المدن للعلماء.

سابعاً – العلاقات الإقليمية:

ونعني بها أن المدن والحواضر لا تقوم في وسط خال من الاتصال والارتباط بالحضارات الأخرى، وأنه نتيجة هذا الاتصال والعلاقة بغيرها تترتب جملة من المؤثرات والأفكار المعمارية، أبرزها:

١ – الاقتباس من الحضارات الأخرى والاستفادة من تجاربها المعمارية كما فعل الصحابي الجليل تميم الداري – رضي الله عنه – عندما نقل السرج المضاءة بالزيت إلى مسجد النبي – صلى الله عليه وسلم – وكانوا يستضيئون بمشاعل النار من السعف والخرق.

٢ – ولعل أبرز مايستفاد منه هنا اقتباس النبي – صلى الله عليه وسلم – فكرة الخندق حول المدينة لحمايتها من الأعداء بمشورة من الصحابي الجليل سلمان الفارسي – رضي الله عنه –، والخندق كانت فارس تعرفه.

٣ – يقاس على ذلك التجارة ونقل الأفكار، كما هو الحال في رحلتي الشتاء والصيف إلى الشام واليمن.

٤ – الفتوحات الإسلامية عرّفت المسلمين بالعمران البشري من حولهم، فلا يبعد أنهم تغذوا بالأفكار التي تيسر النظر إلى هذا النمو الدائري.

مدينة السلام في بغداد إبان العهد العباسي أول مخطط دائري متكامل الوظائف في العالم

إن من المتفق عليه أن مدينة بغداد بنى فيها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور أول مدينة مدورة في العالم من حيث اكتمالها وضخامة حجمها ككتلة معمارية وظيفية، وهي المقر الأصلي لبغداد عام ٧٢٦-٧٢٩م والمقر الرسمي للحكومة العباسية لإدارة البلاد، واسمها الرسمي في العصر العباسي هو مدينة السلام.

بنيت على الضفة الغربية لنهر دجلة واستغرق بناؤها أربع سنوات، وبلغت مساحتها نحو أربعة أميال مربعة. تم بناء المدينة على مرحلتين: أُنجِزت الأولى عام ١٤٦هـ (٧٢٦م)، وكانت هي أهم المرحلتين، وقد توقّف العمل بعدها ستة أشهر بسبب بعض الاضطرابات، والثاني: وهي المرحلة التكميلية، واستمرت ثلاث سنوات، ابتدأت من انتقال المنصور إليها عام ١٤٦هـ(٧٢٦م)، وأُنجِزت عام ١٤٩هـ (٧٢٩م).

ومن أشهر الأبنية في المدينة المدورة قصر الذهب، وجامع المنصور، ومكتبة دار الحكمة. ويعتبر تخطيط مدينة بغداد المدورة ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي لم تعرفها الحضارات بهذه الفخامة والاكتمال، كما أكد ذلك الرحالة الجغرافيون الأوائل، خلافاً لما أشار إليه أحمد إسماعيل (٢٠١٢م) – رحمه الله – من أن الشكل الدائري عرفته الحضارات السابقة بصورة أو بأخرى كمدينة الحضر القديمة قرب مدينة السلام ومدينة مأرب في اليمن، وأن بعض مدن العصور القديمة في آسيا الوسطى عرفت ذلك الشكل، غير أنه أكد أن مدينة السلام المدورة لم تسبق إلى هذا الحجم والدقة والإتقان.

وقد أحاط بها خندق، شُقّت له قناة من نهر فرعي ليجري فيه الماء وهو أحد التحصينات العسكرية للمدينة. ولها سور خارجي عرضه ثمانية أذرع،

وارتفاعه ٣٥ ذراعاً. تذكر الروايات التاريخية أن له أبواباً أربعة بحسب الاتجاه نحو حواضر العالم الإسلامي آنذاك، وهي:

١ – بوابة الشام.

٢ – بوابة الكوفة.

٣ – بوابة البصرة.

٤ – بوابة خراسان.

ومما يذكر أنه أحضر ١٠٠ ألف من الصناع والفنيين لبنائها.

ولعل من أبرز ما تفردت به الخطة الدائرية هو الصلة المباشرة مع السماء في مركزية المسجد من جهة، ومن جهة أخرى بالإدارة المركزية التي تربط الرعية بالحاكم من حوله بما لا يحققه الشكل الشبكي الذي يستهلك الأرض إلى مالا نهاية، أضف إلى ذلك فإن الشكل الدائري يسهل سرعة الاجتماع وسرعة الانتشار، وقد وصفت مدينة السلام أو الزوراء المدورة حتى لكأنها صبت في قالب لفرط الإتقان الذي صاحب عملية بنائها بأيد متعددة المشارب متنوعة الإبداع والنظر.

الشكل (٦)

الشكل (٧)

الشكل (٨)

الأشكال رقم ٦، ٧، ٨ يظهر فيها أطوار تخطيط مدينة السلام بأبعاد مختلفة، انظر مثلاً: زهير هواري، "تأسيس بغداد"، نشر وزارة الثقافة: بغداد، ص٢٤٧، ٢٣٧. وانظر تقرير أيمن كامل حول: "بناء بغداد بالشكل الدائري: الوجود والدائرة المقدسة، ذاكرة بغداد.

الخاتمة:

المتأمل لما استعرضته هذه الدراسة يخلص إلى ما يأتي من نتائج:

أولاً: إن الحضارة العمرانية الإسلامية أقوى وأصدق حضارة ربطت بين إعمار الدنيا بالعمل المتقن مع صدق التوجه للآخرة.

ثانياً: اشتملت الحضارة الإسلامية على تنوع معماري؛ نظراً لتوسع اتصالها الإقليمي والعالمي الذي جمع خبرات من مشارب عديدة.

ثالثاً: إن المسجد هو أصل العمران الحضري وإنه المؤثر الأكبر على تشكيل بنية المدينة حضرياً من حوله.

رابعاً: إن الشكل الدائري هو من صناعة الحضارة الإسلامية من جهة أنها هي التي أبدعت في تشكيله وتكميله وإظهاره في أحسن صورة لم تعرفها الحضارات الأخرى، وهو ما تؤكده هذه الدراسة وترجو أن تكون قد سجلت بذلك أسبقية علمية...!

خامساً: إن الحضارة الغربية المعاصرة لاتزال تشوه تراث الحضارة وصورة العمارة الإسلامية بقصد أو بغير قصد؛ فكانت تختزل أكثر من خمسة قرون من تاريخ الإسلام الحضاري والمعماري إما بالطمس أو التهميش أو الصد بل التهمة بالانتحال من غيرها، حتى إنها حاولت سلب الحضارة العباسية حق ابتكار هذه المدينة وزعمت أنها منتحلة من حضارات سابقة !. أما من أنصف منهم – وهم قلة – فقد أقر بإبداع حضارتنا كما جاء في مقدمة كتاب "ألف اختراع واختراع" رداً على مزاعم أن حضارتنا كانت على منوال "ألف ليلة وليلة"..، وإن شئت.. فانظر مثالاً من أمثلة التجني وعدم الصدق والموضوعية فيما ذكره ماكس فيبر في تحريم التمدن على حضارتنا، بقوله :"إن مجتمع

المدينة بمعناها الكامل لم يتحقق إلا في الغرب.. وإن وجودها في بعض أجزاء الشرق الأوسط كان جزئياً ولفترات محدودة!" . فيا لله أين مزاعم الموضوعية والصدق في الحكم على الأشياء!!.

سادساً: مما يؤسف له أن بعض المدن العربية والإسلامية في الزمن المعاصر لم تعد تراعي موقع المسجد مراعاة تامة، وكذلك قل دوره وأثره في توجيه المدينة وبنيتها الحضارية؛ مما نتج منه عدم توافق العمران مع الظروف البيئية والاجتماعية.

سابعاً: إن هيمنة المدرسة الغربية بمفاهيمها ومقاييسها الحضرية قد أثر في بعض المدن في عالمنا العربي والإسلامي حتى غابت أبرز معالم العمارة الإسلامية عن مدننا الجديدة. إن من الضروري لمن يتعاطى هذا النوع من القضايا أن يضع في اعتباره المقاييس والضوابط الشرعية التي تراعي الزمان والمكان؛ وذلك دفعاً للازدواجية في الشخصية المعمارية الحضارية التي أنتجتها المقاييس الغربية؛ لأن ذلك سيؤثر على سلوك ساكنها قطعاً، فمثلاً إن زخرفة المساجد والتفنن الزائد عن الحاجة في التصميم والانغماس في التنميق والجمال سيبعد المساجد عن رسالتها الأولى وهي كونها مكاناً للعبادة والذكر وقراءة القرآن وطلب العلم والتزود بإعمار الدنيا والآخرة وليس معلماً يتخذ للزيارة والنظر والسياحة، وقس على ذلك بقية المكونات كالمسكن والسوق والطريق؛ أعني أن حضارتنا عملية تؤسس ثوابت ومتغيرات في تعاطيها لمفردات العمران والتحضر.. وكلها تصب في ديمومة الحضارة وثباتها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

المصادر والمراجع

أولاً - المراجع العربية:

- ابن أبي الربيع. (١٩٨١). "سلوك المالك في تدبير الممالك". تحقيق: د.ناجي التكريتي. دار الأندلس: بيروت. وانظر كذلك: طبعة دار الشعب بالقاهرة. ١٩٨١م. تحقيق: حامد عبدالله ربيع.
- الحارثي، ناصر. (٢٠١٠). "التطور العمراني لمدن الحج". مكتبة الملك عبدالعزيز العامة. مكة.
- الكتاني، محمد عبدالحي بن عبدالكبير. (٢٠١١). "كتاب التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية". دار الكتاب العربي: بيروت. السنة غ م. وانظر الطبعة الجديدة. دار البشاير: بيروت.
- ابن خلدون. (٢٠٠٦). "المقدمة". تحقيق: الدكتور علي عبدالواحد وافي. طبعة دار الشعب: مصر. السنة غ م. وانظر: طبعة دار النهضة للطباعة والنشر.
- ابن ضويان، إبراهيم. (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م). "منار السبيل في شرح الدليل". تحقيق زهير الشاويش. المكتب الإسلامي. دمشق.
- السنامي، عمر بن محمد. (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م). "نصاب الاحتساب". تحقيق مريزن عسيري. مكتبة الطالب: مكة المكرمة.
- الماوردي. (١٤٠١هـ/١٩٨١م). "تسهيل النظر وتعجيل الظفر بأخلاق الملك وسياسة الملك". تحقيق: محيي هلال السرحان. دار النهضة العربية: بيروت.
- المقريزي. "الخطط المقريزية". دار صادر: بيروت. السنة غ م.
- البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل. "صحيح البخاري". الطبعة السلطانية: تركيا.

- الشيزري. (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م). "نهاية الرتبة في طلب الحسبة". تحقيق الباز العريني. دار الثقافة: بيروت.
- مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري. "صحيح مسلم". طبعة دار الفكر: بيروت
- إسماعيل، أحمد علي. (٢٠١٢). "جغرافية المدن". دار الكتاب الحديث: القاهرة.
- عبدالقادر، جميل أكبر. (١٩٩٨). "عمارة الأرض في الإسلام: مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية". مؤسسة الرسالة: بيروت.
- عبدالرحيم، محمد مصطفى. (١٩٩٧). "ظاهرة التكرار في الفنون الإسلامية". الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة.
- زيري، يحيى. (٢٠٠٨). " العمران والبنيان في المنظور الإسلامي". وزارة الأوقاف. دولة الكويت.
- هواري، زهير. "تأسيس بغداد". نشر وزارة الثقافة: بغداد.
- الحسني، سليم. (٢٠١١). "ألف اختراع واختراع: التراث الإسلامي في عالمنا". مؤسسة العلوم والتكنولوجيا: المملكة المتحدة.

اخرى:

- أيمن كامل حول. "بناء بغداد بالشكل الدائري: الوجود والدائرة المقدسة". ذاكرة بغداد.

ثانياً – المراجع الأجنبية:

- Pacione, M. (2008).Urban Geography: A global Perspective'', Routledge: UK.
- Ravetz J. (2000). "City Region 2020", Earth scan: London.
- Yasser, Elsheshtawy (ed.). (2008). ''The Evolving Arab City'', Rout ledge: UK.